شعر الرؤيا عند أدونيس (بين التشكيل الشعري والرؤيا الصوفية)

Revelation at Adonis (Between poetic formation and Sufi vision)

د. عيسى عطاشي*

Aissa Attachi

جامعة عمار ثليجي –الأغواط– (الجزائر)

University of Ammar Telidji- Laghouat/ Algeria

aissa.attachi@gmail.com

تاريخ الإرسال:2018/12/29	تاريخ القبول: 2019/05/11	تاريخ النشر : 2019/07/15

ملخص البحث

يشكل **أدونيس** جزءا مهما من شعرنا المعاصر، حيث يعد من الشعراء القلائل الذين جمعوا في مسيرتهم الأدبية بين الشعر والنثر. وإن أهم ما أنجزه على الإطلاق أنه استطاع أن يصوغ مهمة الشاعر بطريقة جديدة، وقد انسجمت كتاباته مع آرائه، ومفاهيمه حول الإبداع. لقد ركز أدونيس في أعماله على الرمز، وتوظيف التاريخ، والأسطورة، والتراث الصوفي، متحررا في استخدام الاستعارة، والمجاز. وكانت تجربته معركة للجمال، والحرية، والتقدم، بجرأة كبيرة، وصراحة عارية.

لقد آمن أدونيس بأن الشعر الحديث "رؤيا"، فتمرد فيه على الأشكال والمناهج الشعرية القديمة، ورفض مواقفه، وأساليبه التي استنفدت أغراضها..

الكلمات المفتاحية : رمز، تاريخ، أسطورة، تراث صوفي، رؤيا.

Abstract :

Adonis makes an important part of our contemporary poetry, for he is considered as one of the few poets who have linked, in their literary journey, between poetry and prose. The most important thing he has ever done is that he has been able to formulate the poet's mission in a new way, and his writings have harmonised with his views and his ideas about creativity.

In his works, Adonis focused on the symbol, the employment of history, myth, and Sufi heritage, and was free in the use of metaphor. His experience was a battle for beauty, freedom, and progress, with great boldness, and naked frankness.

Adonis believed that modern poetry is a "vision," rebelling against the old forms and methods of poetry, and rejecting its attitudes, and techniques that exhausted its purposes.

* عيسى عطاشي. aissa.attachi@gmail.com

Keywords : symbol, story, metaphor, mysticism heritage, revelation

مقدمة:

لا ينكر أن (أدونيس) يشكل جزءا مهما من شعرنا المعاصر، وعلامة من علاماته، يتفق على ذلك المؤيدون والمعارضون لشعره؛ فقد أحدث هزة في القصيدة العربية منذ صدور ديوانه الأول، وظلّ بعد ذلك موضوع جدل لا ينتهي بين عدة أجيال من النقاد والقراء، على اختلاف أعمارهم.

يعدّ (أدونيس) أيضا من الشعراء القلائل الذين جمعوا، في مسيرتهم الأدبية، بين الشعر والنثر، حيث تناول قضايا الشعر المطروحة على ساحتنا الشعرية، وحدّد، بشكل موضوعي، صراع تيار الشعر، الذي ظلّ قائما طوال النصف الثاني من القرن الماضي، وامتد إلى وقتنا الحاضر، كما حاول – في الوقت نفسه – تصحيح بعض ما نقل عن تحرير القصيدة، وتطويرها، وعلاقتها بالتراث الشعري العربي، سواء أكان ذلك في أوزانه، أم لغته، أم قضاياه.

ولعلّ أهمّ منجزات (أدونيس)، على الإطلاق، أنّه استطاع أن يصوغ مهمّة الشاعر بطريقة جديدة، عندما وجه الشعر إلى محاربة تلك الأفكار والقناعات، والأوهام المتحجّرة؛ فمن النادر أن يعثر على شاعر انسجمت كتابته الشعرية مع آرائه، ومفاهيمه الأولية حول الإبداع، مثل أدونيس، ممّا يدلّ على أن الوعي الفني قد أملى عليه أن يرصد كلّ حراك شعري يصدر عنه، عبر كلّ ما كتبه في النقد، عن رؤيا معينة، وموقف محدّد، شمل مجمل تجربته الإبداعية، والحياتية أيضا.

تبدو قدرة شعر أدونيس على تلبية العمق المعرفي، والوجداني للإنسان العربي الحديث، الذي تشبع بالفلسفات، واستوعب التاريخ الإنساني، والرصيد الثقافي، والأدبي العالميين، بوسائل تعبيرية جديدة، كان أساسها الرمز، وتوظيف التاريخ، والأسطورة، والتراث الصوفي، وتحرّره في استخدام الاستعارة والمجاز خارج حدود البلاغة، والتقليد العربي، وهذا ما يتيح للقارئ حرية أكبر في التأويل والتخييل على حد سواء.

ولا شكّ أنّ نصوص أدونيس غنية ومشحونة بالخبرة، والتجربة على نحو تتحدّى فيه ثقافة القارئ، ووعيه، ورغبته في الحصول على اللذة، والمعرفة، حيث لا يتشكل فضاؤها، في هذا الإطار،

إلا عبر تنظيم نوعي لشبكاتها النصية، يستوعب أدبيتها في الاستخدام الفريد للغة، وأسلوبية التعبير، وخلق الرموز، ورسم حركة الدوال، ومن ثم، الوصول بالتشكيل إلى أبلغ وضع جمالي ممكن[1]. إننا نقف أمام تجربة فذّة، خاض صاحبها معارك الجمال والحرية، والتقدّم بجرأة كبيرة، وصراحة عارية، متمسكا بأفكاره، ومبادئه، ومواقفه؛فقد هاجم (أدونيس) كلّ النماذج التي وضعت خطوطا حمراء، ولم تتجاوزها، ولم تسمح لأحد بالخروج على نظامها، ومن هنا،فقد مثلّ شعره قطيعة مع المرجعيات السياسية، والأخلاقية، والتراثية، التي تعتبر نفسها مصدرا أحاديا؛ يحتكر المعنى، ويهيمن على الحقيقة، ومعيارا ثابتا؛ لا يمكن الخروج عنه.

أدونيس والقصيدة الرؤيا:

لقد تشكلت رؤى لدى الشاعر العربي المعاصر، وهو يعيش واقعه المرفوض، يتداخل فيها الرفض، والرغبة، والحلم، ويطغى فيها تجاوز الواقع، بعد تجربة عميقة، عاشتها ذات المبدع، التقت فيها أعماقه بأعماق الحياة، يتفاعلان، فيخصّب أحدهما الآخر، ليمدّ الشعرُ الحياة في "الرؤيا" التي تضيء خفاياها، ويستمدّ منه العناصر الحيّة لبناء عالمه[2].

لقد أضحى الشعر الحديث "رؤيا" مثلما آمن بذلك(أدونيس)، بعدما صبغ ببعد فكري، إنساني، إلى جانب بعده الروحي، إذ يمكن – حينذاك – أن نعرف الشعر الحديث بأنه:"الشعر الرؤيا".والرؤيا– بطبيعتها – قفزة خارج المفاهيم القائمة، وتغيير في نظام الأشياء، وفي نظام النظر إليها، هكذا يبدو الشعر الحديث – أول ما يبدو – تمردا على الأشكال، والمناهج الشعرية القديمة، ورفضا لمواقفه، وأساليبه التي استنفدت أغراضها.

و"القصيدة الرؤيا"– على حد تعبير خالدة سعيد– قراءة جديدة لتاريخ الإنسان في الكون، أو رؤية جديدة للوضعية الإنسانية، تفترض إبداعَ منظومة من القيم، والعلاقات، عن طريق خلق رموز، أو صور، تخترق الانقطاعات الراهنة، بجذورها النفسية، والتاريخية، والكونية، كما تنهض بالخاص إلى شرفة العام. إنّها نوع من اكتشاف العالم، ومن فتح آفاق جديدة. فكما أن العلم لا يخترع الطبيعة، ولا يخلق خصائص العناصر من عدم، ولا يمكنه أن يكون مجرد وصف وتسجيل، وإحصاء، وإنّما هو تأويل، وتنظيم، واكتشاف، ينتج عنها إبداع علاقات، كذلك هي "القصيدة الرؤيا"[3].

شعرية "الرؤيا"، ومصادر تشكيل النص:

لقد حاولت الرؤيا الحديثة للشعر أن تبحث عن مادتها في رموز تمتزج بها من خلال اللامنطقي، واللامعقول أحيانا، ولكن، لا شيء كالرمز أو الأسطورة كفيل بتجسيد شعرية الرؤيا. فقد كان أدونيس، والبياتي، والحاوي، في أفضل إنجازاتهم، يستثمرون رموزهم الشخصية من عمل إلى آخر، ويقيمون بينها من الوشائج النامية، ويجْرون على سياقها الموروث من التغييرات ما يجعلها فنية، درامية، تعبق برائحة أسطورية آسرة، فإذا هي تجربة فذّة مكتفية بنموها الجديد، في تربة مغايرة: تربة الشاعر، وحقل رموزه، وأساطيره الشخصية[4].

ولا شك في أن للتوظيف الأسطوري دوره الفاعل في تفعيل التجربة الشعرية المعاصرة، التي وجدت عزاءها بالارتداد إلى الأسطورة، للهروب من ارتكاسات الحاضر، وأزماته، وانكساراته المتتالية، كون الأسطورة ليست مجرد حكايات تؤلف عمدا، بل هي تعيش – بالضرورة – في عقل الإنسان، تقدّم له الحلول، وتعبر عن أوضاعه الاجتماعية، وقيمه الخلقية، فضلا عن عوالمه النفسية، والذهنية الكامنة. "ومن هنا، تكمن أهمية الأسطورة في توسيع فضاء القصيدة الدلالي، بانفتاحها على مؤثرات دلالية تحكي الواقع، وتحايث عالم المثال (العالم الخارق)، الذي تجسّده الشخصيات الأسطورية"[5].

صوفية النص الأدونيسي:

إنّ النص الحداثي شبيه بالنص الصوفي، لا يستمد شعريته من قانون قبلي، كالوزن، أو القافية، بل من منبع الروح، ومن تفجر لغتها الإشراقية، ومن انثيالها الطليق، المتناقض كالحلم. إنّ النص الصوفي، والنص الحداثي، كليهما، ينطلقان غامضين، كثيفين، فاتنين، من النبع ذاته[6]، حيث تكون مهمة الشعر: "خلق أسطورة الإنسان"[7]، كما يقول (سارتر)، حينها يغدو الشعر تجلّيا لتوتّر حاد بين الذات والآخر، بين اللحظة الحاضرة والزمن الأبدي، بين المكان القائم الآن، والمكان الآخر[8].

ولعل إشارة(سارتر) السالفة قد يمكن تمثّلها في شعر أدونيس، إذ لا يزال الشاعر عاملا على إدامة حياة الأسطورة، وإعادة خلق الإنسان، عبر أساطيره القديمة، ورموزه الدينية. فكلّ

إعادة خلق تتضمن – في الوقت نفسه – الاستمرارية، والاحتجاج، والإضافة.ذلك الذي نستشفّه في لفتة شعرية رؤيويةأدونيسية:

".. سلاما للفساد الخالق

الأليف كأنه الهواء

المؤسس.. كأنه البدء..

سلاما لوجهي

يتبع فراشة النار.."[9]

حيث يبرز اختلاف مفهوم الخالق عن سياقه الديني، الذي يمثل الكمال، والجمال، فتنكسر الصورة في هذا المشهد الشعري، ويتحوّل الفساد إلى خالق أليف، كأنّه الهواء، والكلمة هي البدء، إنّما – هنا – يشابهها الفساد المؤسس. ويتابع الشاعر إلقاء السلام، وهذه المرة على وجهه الذي حلّ محلّ "الفساد"، المقترب، كالفراشة، من النور "النار"[10].

ويتساءل أدونيس عن الإله الذي يعبده جيله، في قصيدة "الفراغ"، فيقول:

".. لمن جيلنا يحرق البخور.. لمن يسجد

وأي إله ترى يعبد.." [11]

متسائلا عن هوية هذا الجيل، وقيمه التي يهتدي بها، وما الغاية التي يسعى لأجلها في حياته، إنه جيل الفراغ، والعقم. يقول أدونيس:

".. لمن ينتمي، ويشدّ يديه اعتدادا

ويحيا له صيحة وجهادا

لمن فصّل اليوم ليلا وشمسا

وسوّى له العمر آنا وأمسا

لمن يتربّى.. لمن يكبرُ

تكاد على عقمه الآلهه

تعاف قرابينه الوالهه

وتركلهم واحدا واحدا

وتكبر عنهم، وتستكبرُ.."[12]

أدونيس والمتن الصوفي:

يكاد يكون من نافلة القول، عند الخوض في قضايا الحداثة الشعرية العربية، التأكيد على أن للرؤيا الصوفية تأثيرا كبيرا على النصوص التي تحتويها،خاصة في تعالقها الشديد مع نصوص صوفية بالأصل،استطاع الشاعر أن يتناصّ معها. والحضور الصوفي في شعر أدونيس لا يقتصر على مشاهير الصوفية على شاكلة "النفّري"، و"ابن عربي"، بل يشمل غيرهما من أعلام التصوف، ناهيك عن المذاهب والأفكار الصوفية.

وقد لاحظ (محمد بنيس)،عند مناقشته لقصيدة "هذا هو اسمي"، أنّ النص الديني يشكل النص الغائب في نص (أدونيس)، ابتداءً من عنوان القصيدة، التي له صلة بالقرآن، وبأسماء الله الحسنى؛ إذ تتحوّل الأسماء الكثيرة إلى اسم واحد، وهو تحوّل يتدخّل فيه قانون الحوار النصي، الذي أساسه القلب، والنفي، والتعارض، وحتى المحو[13].كما أنّ الدلالات التي تحملها سيرة "مهيار الديلمي"،التي تحوّلت – عند أدونيس – إلى " أغاني مهيار الدمشقي"، قد تفاعلت مع غيرها من المتناصات، منسربة في شبكة العلاقات الدلالية للديوان، مؤدية وظيفة دلالية مختلفة عن وظيفتها الأولى[14]. حاول (أدونيس) أن يجد الحرية الحقيقية للإنسان، التي تكفل له إنسانيته. إنها حرية الرأي والفكر، حيث يمكنه أن يقول ما يريد، وما هو على اقتناع به، دون الرضوخ إلى أي سلطة، مهما كان نوعها. لذلك نراه يحمل على فكرة الألوهية، كونها – في نظره – عقبة كأداء، تحُول دون تأكيد الإنسان لذاته حين سيطر الإحساس بعدمية الوجود على الشاعر، فإذا به يقرّر الهروب من الآلهة، ومن نقيضها. يقول في قصيدة "حوار":

".. لا الله اختار ولا الشيطان
كلاهما جدار
كلاهما يغلق لي عيني
هل أبدل الجدار بالجدار
وحيرتي حيرة من يضيء
حيرة من يعرف كل شيء..."[15].

إنّ تنكر "مهيار" للآلهة، والشيطان هو – من جهة – خطوة أولى وضرورية للإحساس بحرية القرار، وهو – من جهة أخرى – ثورة على ثنائية الخير والشر، التي سيطرت على الفكر الإنساني مدة

طويلة من الزمن، مما دعا مهيار لتبني قيم جديدة كفيلة بأن تنقذه من تيهه وخوفه[16]. ومادام (أدونيس) صاحب مشروع حضاري جديد، فقد انطلق يخلق نوعا جديدا هادما لكل قديم مألوف، ولكل ما له علاقة بالماضي، وبالتراث، بعدما وجد أنموذجه الرؤيوي، وضالته الشعرية في صوفية "النفّريّ". يقول:

".. أحرق ميراثي، أقول أرضي
بكر، ولا قبور في شبابي
أعبر فوق الله والشيطان
(دروبي أنا أبعد من دروب
الله والشيطان).."[17].

يعترف (أدونيس) مندهشا أمام (النفّري)، وتجربته الصوفية الرائدة:

".. لا أعرف كيف أصف دهشتي، حين قرأته. أعرف أنّني شعرت، وأنا أقرأه، أنّ لِما أقرؤه فعلَ القتل: قتلَ معظم الشعر الذي سبقه، ومعظم الشعر الذي أتى بعده، هكذا أدركت أنّني أمام شاعر عظيم.."[18].

لقد اتّجه كلّ جهد (النفّري)، في "المواقف"، إلى تحطيم اللغة، ومن هنا، يضبط التأويل الأدونيسي، في كتابة (النفري)، ثلاثة أسس نظرية، لها وشائجها مع بعض مستويات تنظيره السابق للقصيدة الجديدة. وهذه الأسس هي:

أ= أسبقية التجربة،وأولانيةاللاشكل:

حيث يذهب (أدونيس) إلى أن الشكل عند (النفري) ليس "صيغة كتابة، وإنّما هو صيغة وجود"، أي إنّه "وعد ببداية دائمة"، لذلك، "لا ينطلق النفري من أولانية شكلية، بل من أولانية اللاشكل"[19]. وتجربتها لكيانية هي "من طور يتجاوز الكلام"، وبالتالي، يتجاوز طور الشكل[20]".

ب= خلق اللغة الشعرية اللازمة

إنّ(النفّري)، وهو يكافح لأجل "بسط كلماته كمائنَ وأَشراكًا لالتقاط عالم غائب"[21]، إنّما "يكافح اللغة من حيث إنّها شكل"، وهو كفاح يجعل اللغة – باستمرار – ملغومةً، محوّلةً عن عاداتها،إذ يبدو (النفري) مخاطرا، يتقدم من المجهول[22]، من خلال كتابة لم "تأبه بتاريخ اللغة قبلها، ولا بأنظمتها، وأشكالها،ومن هنا، فقد عاشت، وخلقت خصوصيتها وحدها"[23].

ج = تعدد المعنى وانفتاح النص:

لا تتّجه ضديّة (النفري) إلى المخاطرة باجتراح "ما لا يقال"[24] فقط، بل إلى تغيير مقاييس تقييمه أيضا؛ فلم تعد قيمة القصيدة عنده كامنة في "وضوح المعنى، واكتمال الشكل"، بل في كونها "توحي بأكثر من معنى، وفي كونها لا تكتمل، بل تظل مفتوحة"، باعتبارها "نقطة انطلاق لا نقطة وصول"[25].

بهذه الأسس، تكون كتابة (النفري) كتابة من يختار المجيء من المستقبل[26]، وهي كتابة سترقد زمنا طويلا، لتجد في حفر معاول (أدونيس) ما يبعثها من رقادها.وإنّنا لنجد في تصوف أدونيس انفتاحا، واتحادا بالتراث الصوفي، إذ يأخذ منه الاستبطانية الرمزية، ليستحدث، من خلال توظيفها، ما يثري لغته، ويجدّدها. فالصوفية تعني – بالنسبة إليه – استشفاف المجهول، واكتشاف ما يختبئ وراء هذ الستار الكثيف، الذي هو الواقع اليومي الإلف. يقول

".. واليوم لي لغتي
ولي تخومي، ولي أرضي، ولي سمتي.."[27]

فكيف توصّل الشاعر إلى هذا، وأين استكشف هذه اللغة؟ لذلك، يواصل قائلا:

".. قلت لكم: أصغيت للبحار
تقرأ لي أشعارها– أصغيت
للجرس النائم في المحار.."[28]

ثم يستكمل رحلته الاستكشافية، في حركة تمزج بين التصوف والواقعية:

".. صليْت
وشوّشت حتى الحجار
وقرأت النجوم
كتبت عناوينها، ومحوت
راسما شهوتي خريطة
ودمي حبرها
وأعماقي البسيطة.."[29]

يقول (عز الدين اسماعيل)، معلقا على هذه اللغة الأدونيسية: ".. فلغته جديدة وبكر؛ لأنّها تجتمع منها، لأول مرة، كلّ أبعاد التجربة الواقعية – إذا صحّ التعبير–. إنّها تتولّد نتيجةً للحفر والتنقيب في سراديب الواقع، إنّها تتجاوز الوجود إلى أعماقه، وليست الكائنات، والظواهر الكونية في منظور الشاعر، إلا الحروف التي ينسج منها الوجود الكلي للغة"[30].

إنّ جمالية التصوّف تقوم على التناقض، أي: إنّ الشيء لا يفصح عن ذاته، إلاّ في نقيضه (...) وهكذا، تتلاقى، في وحدة تامة، الحركة والسكون، والحقيقة والخيال، والغريب والأليف، والوضوح والغموض، والداخل والخارج، وهي واحدة من الأسس الجمالية في الكتابة الصوفية[31].وأدونيس – نفسه – استظهر هذه السمة الجمالية الصوفية في التعبير الشعري، معتمدا عنصر "الإشارة الايحائية" لهذا (الما– بين). يقول:

".. مزجت بين النار والثلوج
".. لن تفهم النيران غاباتي ولا الثلوج
وسوف أبقى غامضا أليفا
أسكن في الأزهار والحجاره
أغيب
استقصي
أرى
أموج
كالضوء بين السحر والإشاره.."[32]

لقد استشرف (أدونيس)، من خلال قصيدته، قول (النفري)، من فصل"المواقف": ".. **وأوقفني في الرحمانية، فقال: لا يستحق الرضا غيري، فلا ترض أنت، فإن رضيت، محقتك.."**[33]. والقصيدة تنويع على مقولة النفري الشهيرة: **"إذا اتسع المعنى، ضاقت العبارة"**.

صوفية أدونيس من خلال تجربة: "مفرد بصيغة الجمع":

تكشف التجربة في شعرية الحداثة، عن أشكال تعبيرية متعدّدة تلغي الذاكرة، وهي لا تحيل إلى أي شيء، بل تحيل إلى ذاتها فقط. ومن ثم، كان تشكّل "القصيدة الرؤيا" يعني: تحوّل الشاعر

إلى راءٍ في تعامله مع العالم. وبذلك، تصبح كلّ "رؤيا" هي تغيير لنظام الأشياء، وتحويل لعلاقات الأشياء. ومن بين النصوص التي تمثل ذلك قصيدة "مفرد بصيغة الجمع"، التي يوحّد فيها ما بين الرؤيا والفعل، ويسجل سيرته الذاتية في نص شعري يجسد معاناة عصره .

إنّ الرؤيا الصوفية تتسلّل إلى هذا النص من خلال العناوين التي يستخدمها، وهي متعدّدة؛ لأنّ النص يتحوّل إلى جسد لا شكل له. وعند قراءة "مفرد بصيغة الجمع"، نكتشف أن أدونيس يقوم بكتابة تاريخه الشخصي، من خلال ثلاث علاقات مركزية، أهمها العلاقة الثالثة، وهي: اللغة، الكتابة، الشعر. هنا تصل المعاناة ذروتها، حيث "العلاقة باللغة هي علاقة صراع"[34]، وهي خلاصة تجربة أدونيس الصوفية. وقد نلمس هذا الطرح، في تحديد (أدونيس) لعلاقته بالصوفية، وخصوصية محتواها، حيث يقول:

"تخلو صوفيتي من المحتوى الديني. إنّ الله– بمعناه الديني – لم يعد يتكلّم، وإنّ اللامرئي قيل مرة واحدة، وإلى الأبد، غير أنّاللامرئي، في صوفيتي، يتكلّم دوماً، وعلى نحو لانهائي. فكلّ مبدع – إذًا – إنّما هو متنبئ، وعلى نحو لا نهائي، لهذا، ليس في صوفيتي، فرق بين الكائن الإنساني، وبين ما يسمى: الله، حيث نبلغ – هنا – حالة من الوجد، تصلنا بجوهر الكون، متجاوزين كلّ الحجب، وكلّ العوائق المادية. ويغدو المرء في تلك البرهة، واحداً مع الله، و[هو] ما يمكن تسميته بالاتحاد، أو وحدة الوجود(...)إنّالله، بما هو معرفة، يتجاوز كلّ الخطابات، وكلّ النظم. إنّه متجاوز لكلّ وحي؛ لأنّه اللامتناهي، المنفتح دائماً، وأبداً، على لا تناهٍ أعظمَ"[35].

ويقول في مكان آخر:

"منذ البداية، شدّدت في مقدمة "الصوفية والسوريالية"، على أنّني أفصل – كلياً – بين الصوفية معتقداً، والصوفية منهجاً، في المعرفة، والكتابة، وفي العلاقة بالعالم (...) ولئن كان (رامبو) يشترك مع (النفّري)، كمثلٍ آخر، في خصائص رؤيوية، وتجريبية، وكتابية كثيرة، فإنّ ذلك لا يعني: أنّ (رامبو) أصبح صوفياً، وأنّ(النفّري) أصبح رامبوياً (...) ما قلته هو: أن الطاقة الشعرية التي حركته، لم تكن نابعة من (ديكارت)، أو من العقلانية الأوروبية، أو من الانقلاب الصناعي. كانت – بالأحرى – تنبع من أفق آخر، هو ما سميته: الصوفية*، لانعدام كلمة أخرى، أكثر إفصاحاً، ودقةً.الصوفية، بوصفها منهجاً، أو

طريقة في رؤية العالم، لا بوصفها "ديناً"، أو "معتقداً"، وهو أفق الحلم، والخيمياء، والسحر، والرؤيا، والحدس، والكشف، والشطح...الخ، مما يناقض المنهجية العقلانية الغربية، التي كانت سائدة آنذاك"[36].

هكذا تحيا القصيدة في زمنين: الزمن الأسطوري الصوفي، في المستوى الأول، والزمن الكتابي في المستوى الثاني، وهذا الزمن يبحث في حركة اللغة، وبذلك يصبح زمن الكتابة في القصيدة، هو النص بعناصره المختلفة، وفي علاقاته الداخلية. إنّه الغرق في أدغال الكلمات، وعناصر الإيقاع، دون اكتشاف الدلالات.والشاعر يغالب اللغة؛ يفرغها من المعاني المكرورة، ويشحنها بدلالات جديدة، في إطار الكتابة الشعرية الجديدة. قال أدونيس:

" أسكن في هذه الكلمات الشريده
و أعيش ووجهي رفيق لوجهي"[37]

والشاعر، في نصه، يجبر اللغة على استعادة عذريتها:

"أمحو وجهي – أكتشف وجهي
أيتها الأبجدية البائسة
ماذا أستطيع بعد أن أحملك"[38]

وتبقى القصيدة مجموعة محاولات لكتابة نص قد لا يأتي؛ فالشاعر يعيش لحظات الوجد، لحظات التجلّي، ينكسر فيها الفعل، ويعيد تشكيل نفسه:

" لا أكتب
لماذا كلما أوضحت ازددت غموضا؟
لا أكتب
أنا المرض والكتابة سريري"
ويواصل قائلا:
"لا أكتب
أتحد بقشرة النهار
لأكون الصورة الشكل
لمعنى

هو الموت حقا.."[39]

إنّ قصيدة "مفرد بصيغة الجمع"، تؤكّد أنّها نص ليس له احتمالات، أو صيغ جاهزة، فهو نص يقوم – أساسا – على الحركة، ويكسر الثبات، ويفتح التناقض المعين على تأويله، لذلك، تقودنا القصيدة إلى لحظة الانشطار، ثم الانفجار، ومن ثم، تؤسس القصيدة إيقاعها الخاص، من داخل حركة الفعل"[40].

تجربة الجسد في صوفية أدونيس:

ظلّ الجسد – بمفهومه الحسي الايروسي والفكري، والثقافي، والحضاري – هاجسا ملحّا عند الكثير من المبدعين، والمفكرين، والعلماء، والمثقفين، لما ينطوي عليه من أهمية بالغة في الحياة والثقافة معا، وتعدّدت بذلك سبل التفكير فيه، والنظر إليه، ومقاربته، وفحص مفهوماته، وتشكيلاته، بناء على طبيعة هذه الموضوعة، وحساسية المرجعية الفكرية، والثقافية، والاجتماعية، والتاريخية، والحضارية، التي تكوّنها. وربما يكون الجسد – في ظل المعرفة الحديثة – قد اكتسب حضورا أكثر قوة، وسطوة، على صعيد القراءة والبحث.

يعاين (أدونيس) الجسد بوصفه حالة إنسانية كلية، وشاملة، تتجاوز حدود الفتنة الحسية أو المعنى الجنسي الضيق،الشائع؛ إذ الجسد – كما يرى أدونيس – خلاصة كونية، بحيث إذا ".. **كنا نكْتنِه الكون وأسراره بالعقل، فإننا نحسّه ونتذوّقه بالجسد، هذا هو الأكثر غنى.. إنّه الحياة في نبضها الأعلى، وفي حضورها الأكثر بهاء، وإنسانية. يجب تدمير جميع القيود التي تشوّش، أو تعرقل هذا البهاء**"[41].

يدعو (أدونيس) صراحة إلى تحرير الجسد من أي سلطة تعوق تفتحه، وانفتاحه، وانطلاقه، وتعبيره الحرّ عن خطابه.ويفعّل (أدونيس) مفهوم الجسد تفعيلا كونيا، يتضمن فيه مفهوم الحب، ويستوعبه، ويغنيه[42]، وتتحدّد معالم المرأة في أثنائه،من حيث هيإحدى أهم مفاتيح المعنى الأدونيسي في تجربته الشعرية، فهي توحي بالجسد – في التفكير الايروسي –وترتقي – في الفهم الأدونيسي– إلى مصاف أن تكون شعرا خالصا، حيّا، على النحو الذي لا يمكن مقاربة شعر أدونيس من دون ولوج فضاء (المرأة الشعر)[43].

تبدو أهمية التجربة الصوفية لدى (أدونيس)، في كونها تطرح مسألة الحرية، ومسألة العلاقة بين الذات والآخر، وبين الإنسان والله. فالدين يكون إلهيّا، بقدر ما يكون حراًّ، وبقدر ما يؤسس

للحرية في جميع الميادين.وعلى ضوء هذه القراءة، يرفض (أدونيس) أن تحقر الممارسة الدينية جسد الإنسان؛ فليس الجسد في جانب، والروح في جانب آخر؛ لأنّ الاثنين وحدة متكاملة، والحياة الإنسانية تتجلّى فيهما معاً.

"في صوفيتي، تعطى الأهمية المباشرة، والقصوى للجسد، بوصفه مثولا متصلاً مباشرة بالأشياء، وبالعلم، وبالنور. من أجل بلوغ اللامرئي؛ أي: الله.لابدّ من المرور بالجسد.وأؤكد على الجسد الأنثوي، لأنّ العالم الذي لا يؤنث، لا يعول عليه"[44]. فللتصوّف علاقة وثيقة بالجسد، من منظور (أدونيس)، يقول: ".. **الفعل الجنسي هو سر الكون، ويلتقي بالفعل الجنسي ما يسمى (المادة) بما يسمى (الروح). وليس بوسعي أن أرى (الجسدي)، خارج نطاق (الروحي)، إذ نحن لا نمارس الحب بالجسد، وإنّما بالروح، ما دمنا بشراً، وما دام الكائن البشري جسداً، وروحاً في آن معاً.."**[45].

والكلام عن الجسد نوع من إعادة إنتاجه، نوع من اللقاء – ثانية – بماض ظلّ التراث الشعري التقليدي فيه يبحث عن تأسيس شعريته على المعرفة الدينية، ومن ثمّ، طرد الجسد الإنساني إلى العالم الحسي مصدر الوهم والخطأ، بل مصدر الخطيئة[46].يقول (أدونيس):

"ابتدأ تدمير الجوهر الإنساني مع الانقسام إلى جسد وروح (...) **وأنا أقف ضده بكلّ حزم. هناك انقسامات أخرى، على غرار ما يسمى: العقل والقلب، ولكنّ الكائن الإنساني – في رأيي – هو كلٌّ لا يقبل الانقسام؛ فالحقيقة** (...) **إنّ العقل يمرّ من خلال القلب، والقلب من خلال العقل"**[47]. لقد بلور (أدونيس) شعرية الجسد، في إطار التمرد الأقصى على الشعريات المعرفية، والدينية. يقول:

"لا شك أنّ وظيفة الجسد الذاتي الرئيسية، هي: أنّ الجسد هو الذي يدرك، وأنّني لست أمام جسدي، وإنّما في جسدي، أو– بالأحرى –: (أنا = جسدي).."[48]. إنّ الجنس عند (أدونيس) هو الاتصال، بل هو أعمق نوع من أنواع الاتصال؛ لأنّ الرجل يجد في المرأة نبعه، ولا يجد موضوعاً غريباً عنه، إنّه يجد جزأه الآخر، الجزء الضائع. والجنس اكتشاف، حين يغرق الرجل في جسد المرأة، فهو – في الواقع – يكتشف. هذا الاكتشاف هو ما يمنحه حريته والإحساس بكيانه المتحرّر من كلّ مرجعية. يسهم (أدونيس)في البلورة الحداثية لشعرية "الجسد–الذات"، إذ الذات – كلّها – جسد، ولا شيء غير الجسد، الجسد كلّه يفكر، والوعي في

مجموعه، بل لابدّ من إعادة تفسير الفكر المنطقي نفسه، بوصفه رمزاً، أو عرضاً من أعراض حالات جسدية معطاة بعامة، والجسد هو مقر فكر لا شعوري، يقود أحكام القيمة. والمتأمل في خطاب (أدونيس)، يتأكد له أنّه ينظر إلى النص (النص الشعري)، على أنه جسد. يقول:

".. **فهم الجسد على نحو حاسم، يتناقض مع الجسد ذاته. أنا أرى بأن الجسد – إنسانيا – يظل عصيّا على الفهم فهمًا نهائيا؛ فالجسد هو الظلمة، هو المجهول، هو الليل.إنّ جسداً إنسانيا ينتظر دوماً التعرّف، ينتظر اكتشافه؛ لأنّ بوسعه أن يولد كلّ يوم من جديد، فهو لا يولد مرة واحدة، وإلى الأبد، بل إنّه ولادة جديدة مستمرة، حتى في مرحلة الشيخوخة..**"[49].

ويوضّح هذه الفكرة أكثر بقوله:

"**الجسد، بالمعنى الكلي، هو (الإنسان)، وأركز – هنا – على جسد المرأة الحبيبة (العشيقة). فمن المستحيل أن يكتشف – بشكل نهائي – جسد امرأة (...) جسد المرأة حضارة بكاملها. التاريخ كلّه موجود فيه، بتقاليده، بعاداته، وبميولاته(...) ذلك أنّ هناك جوانبَ– دائماً– خفية في جسد المرأة (...) نكتشف جسد المرأة كأننا نقرأ كتاباً (...).فلجسد المرأة طبقات مثل النص الشعري العظيم، تدخل في طبقة، فتتكشّف لك طبقة ثانية، وهكذا..**" [50]

وتدعم، ما نذهب إليه، نصوص أخرى لـ (أدونيس)، يتوق فيها إلى الاتصال الجنسي باللغة، والكتابة، والإبداع. يقول:

"**ما اعتقدت – يوماً – بأنّ الجواب عن مشكلاتي العاطفية والجنسية، يكمن في ميدان الحب، أو في صلات العشق. وإذا كان هناك من جواب في ما يخصني، فلا يمكن أن يكون موجوداً إلا في ميدان الكتابة والفكر. ولو أنني خيّرت بين الكتابة، وعيش قصة حب مع امرأة فائقة الحسن، لاخترت الكتابة دون أي تردّد (...) ما من شيء يعبر عن وجود أكثر من الإبداع، والخلق**"[51].

يؤمن (أدونيس) بأنّ "الفكر الخلاّق" متعة لا تتّحد في الذهن وحده، وإنما تشمل الجسد"[52]. ويربط (أدونيس)، في هذا السياق، فعل الكتابة بفكرة المحو لدى الصوفية، ويعبر عنها، هنا، وفي أماكن أخرى من كتاباته، بـ"الموت"، وكذلك بـ"الفراغ"، وهو لا يفصل كلّ ذلك

عن الحب، والجنس، والعشق الإنساني.ففي المفهوم الصوفي، وفي نظرة المتصوفة للمرأة، يقول: **"جسد المعشوق أشبه بنور ساطع وسط الظلمة. هذه المرأة – النور– إنّما هي غاية، ووسيلة للإحساس، على نحو أعمق، لفهم سرّ الكون حق الفهم. وسرّ الكون هذا، لابدّ أن يكون إنسانيا؛ لأنّ جوهر الكائن الإنساني، إنّما هو تجاوز تناهيه؛ فالإنسان متناه، ولكنه لا متناه في تناهيه، فهو يتجاوزه على الدوام. وهاهنا، نعثر على سرّ الفعل الجنسي، وسرّ الحب (...) فعل الحب يعني: التوحّد مع الكون عبر الجسد، إنّه يعني: التوحّد مع جوهر الكون.."**[53].

خاتمة:

لقد آمن (أدونيس) أن هدم "الأصل"، يجب أن يمارس بالأصل ذاته، خصوصا، في مرحلة لا زال يبحث فيها العرب عن حداثة عربية متأصلة. ويبقى هذا الإيمان ركيزة أساسية؛ كون هدم التصورات، والمفاهيم القديمة التقليدية، لا ينبغي أن يكون من خارج التراث، حتى لا يتحوّل – في مجال التجريب – إلى تصورات، ورؤى لا علاقة لها بالبيئة الثقافية العربية؛ بوصف بنية الهدم تتضمن – في أساسها –: البحث عن تأسيس تصورات جديدة، لا تبدأ من فراغ، وإنّما تقوم على أسس الماضي، ومخلفاته. وهي – في إحدى أبعادها– تقييم للتجربة التي تقدّمتها، وأفادت منها، وجاوزتها.فإذا كان العقل العربي وليد التديّن، والتساؤل، فعليه أن يتخلّى عن هذه الممارسة، قصد مساءلة المعرفة التراثية.

ولا يفوتنا، ونحن نختم الحديث عن صوفية (أدونيس)، أن نعود، لنحصر رؤيته الشعرية في النقاط الآتية:

– تأكيد صوفية (أدونيس)، على التجربة الشخصية الخاصة، وما ينجم عن ذلك من تمحور حول ذاتيةالوجود الشخصي، وجوانيته.

– ينظر (أدونيس) إلى التجربة الصوفية الأصلية، على أنها من جنس التجربة الشعرية، وهي تجربة معرفية، تذهب بنا إلى أبعد من الحقائق التي يمكن أن توصلنا إليها عقولنا، وحواسنا.

– تحرّر كلا التجربتين من الفهم العادي للعالم، والنظرة التقليدية إلى الأشياء، ومن اللغة التقليدية، ونحوها، ومنطقها.

– القراءة الصوفية للتراث الديني، أتاحت لـ (أدونيس) قراءة جديدة للتراث الأدبي، والفكري، والسياسي، كما أتاحت له نظرة جديدة إلى اللغة، بوصفها أداة كشف.

– يتماثل موقف (أدونيس) مع موقف الصوفي؛ إذ هو موقف مجسّد لفكرة "وحدة الوجود"، إنّه موقف يلغي أيّة إمكانية لتجزئة الحقيقة.

– يؤمن (أدونيس) بأنّ "الفكر الخلاّق" متعة لا تتّحد في الذهن وحده، وإنما تشمل الجسد، بوصفه حالة إنسانية كلية، وشاملة، تتجاوز حدود المعنى الجنسي الضيق ، إلى كونه خلاصة كونية، بحيث يغدو فعل الحب توحّدا مع الكون عبر الجسد، إنّه يعني: التوحّد مع جوهر الكون.

هوامش:

[1] –محمد صابر عبيد، الفضاء الشعري الأدونيسي– سيمياء الدال وابتكار مفاتيح المعنى، دار الزمان للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط.2، 2012، ص: 30.

[2]– أحمد زكي كنّون: المقدس الديني في الشعر العربي المعاصر (من النكبة إلى النكسة)، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2006، ص:101.

[3]– خالدة سعيد: حركية الإبداع (دراسات في الأدب العربي)، دار العودة، بيروت، ط.2، 1982، ص: 190، وما بعدها.

[4]– علي جعفر العلاق: حداثة النص الشعري، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط.1، 2003، ص: 68.

[5]– عصام شرتح: فضاء المتخيل الشعري (دراسات تحليلية في بنية القصيدة الحداثية)، دار الينابيع، دمشق، ط.1، 2010، ص: 14.

[6]– علي جعفر العلاق: حداثة النص الشعري، ص: 44.

[7]– جان بون سارتر: ما الأدب، دار غاليمار " أفكار باريس"، دار الآداب، بيروت، ص: 97.

[8]–كمال أبو ديب: في الشعرية، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، 1987، ص: 103.

[9]– أدونيس: مفرد بصيغة الجمع، دار العودة، بيروت، ط.2، 1971، ص: 217.

[10]–كامل فرحان صالح: الشعر والدين (فاعلية الرمز الديني المقدس في الشعر العربي،دار النشر : دار الحداثة للطباعة والنشر، 2004،صص:290،291

[11]– أدونيس: الآثار الكاملة، دار العودة، بيرت، 1971، 1: 233.

[12]–المصدر نفسه، 1: 233.

[13]– محمد بنيس: محمد بنيس: الشعر العربي الحديث (بنياته وإبدالاته)، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط.2، 1996، 3: 193، 194.

[14]– جابر عصفور: رؤى العالم، المركز الثقافي العربي (عن تأسيس الحداثة في الشعر)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط.1، 2008 ص: 272.

[15]– أدونيس: ديوان أغاني مهيار الدمشقي، ص: 48.

[16]– آمال منصور: أدونيس وبنية القصيدة القصيرة (دراسة في أغاني مهيار الدمشقي)، عالم الكتب الحديث، اربد، الأردن، 2007، الصفحات: 198، 200، 201.

[17]– أدونيس: ديوان مهيار الدمشقي، ص: 49.

[18]– أدونيس، تأسيس كتابة جديدة، لبنان، مجلة مواقف: عدد: 17/16، III ،1 أكتوبر 1971، ص 07.

[19]– المرجع نفسه، ص 7

[20]–نفسه، ص: 08.

[21]–نفسه، ص: 08.

[22]– نفسه، ص: 08.

[23]–نفسه، ص: 09.

[24]– نفسه، ص: 10.

[25]–نفسه، ص: 10.

[26]– نفسه، 07.

[27]– أدونيس: ديوان مهيار الدمشقي (قصيدة "ساحر الغبار")، ص: 81.

[28]– أدونيس: كتاب التحولات، والهجرة في أقاليم الليل والنهار، ص: 34.

[29]– المرجع نفسه، ص: 34.

[30]– عز الدين اسماعيل: الشعر العربي المعاصر (قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية)، دار الفكر العربي، بيروت، ط.2، 1978، ص: 184.

[31]– أدونيس: الصوفية والسوريالية، دار الساقي، بيروت، ط.1، 1992، ص: 141.

[32]– أدونيس: كتاب التحولات، والهجرة (ضمن المجموعة الشعرية الكاملة)، تنظر: قصيدة "الإشارة"، صص: 140.

[33]– أدونيس: مفرد بصيغة الجمع، ضمن الأعمال الكاملة، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق (1996)، فصل المواقف، ص: 80. وينظر: محمد بن عبد الجبار: الحسن النفّري (المواقف والمخاطبات – موقف العظمة)، تح: آرثر آربر، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1934.

[34]– مشري بن خليفة: الشعرية العربية (مرجعياتها، وإبدالاتها النصية)، دار حامد للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط.1، 2011، صص: 186، 187.

[35]– أدونيس: الهوية غير المكتملة (الإبداع، الدين، السياسة، والجنس)، تعريب: حسن عودة، بدايات للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط.1،2005، صص: 7 – 9.

* يقول أدونيس: ".. أفضّل كلمة "صوفية" على ما يرادفها في الغرب – أعني السريالية –؛ فلكلمة "صوفية"، أصولها، وتاريخها في التراث العربي، وهي تعني، بعد إفراغها من الشوائب التي لحقت بها: استشفاف المجهول، واكتشاف ما يختبئ وراء هذا الستار الكثيف، الذي هو الواقع الأليف اليومي". ينظر: أدونيس: الثابت والمتحول (صدمة الحداثة، وسلطة الموروث الشعري)، 4: 184.

[36]– أدونيس: رأس اللغة جسم الصحراء، دار الساقي، بيروت، ط.1، 2008، صص: 272، 273.

[37]- أدونيس، الأعمال الشعرية، (أغاني مهيار الدمشقي وقصائد أخرى)، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، سوريا، 1996، ص196.

[38]- أدونيس، الأعمال الشعرية، (مفرد بصيغة الجمع وقصائد أخرى)، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، سوريا، 1996، ص 416.

[39] – أدونيس، الأعمال الشعرية، (مفرد بصيغة الجمع وقصائد أخرى)، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، سوريا، 1996، ص ص 408،409.

[40]– مشري بن خليفة: الشعرية العربية (مرجعياتها، وإبدالاتها النصية)،صص: 188– 192.

[41]– مقتطف من حوار أجراه (عبده وازن) مع (أدونيس)، نشر على خمس حلقات في جريدة الحياة، بيروت، بين 03/20/ 201 و2010/03/24.

[42]– محمد صابر عبيد: فضاء الشعر الأدونيسي، صص: 192، 193.

[43]–فضاء الشعر الأدونيسي (مرجع سابق) ،صص: 278، 279.

[44]– أدونيس: الهوية غير المكتملة (الإبداع، الدين، السياسة والجنس)، تعريب: حسن عودة، بدايات للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط.1، 2005، ص: 9.

[45]– المصدر نفسه، ص: 73.

[46]– ينظر: وائل غالي: الشعر والفكر (أدونيس أنموذجا)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2001، ص: 142.

[47]– أدونيس: الهوية غير المكتملة (الإبداع، الدين، السياسة والجنس)،ص: 85.

[48]– ينظر: وائل غالي: الشعر والفكر (أدونيس أنموذجا)،ص: 124.

[49]– أدونيس: الهوية غير المكتملة (مرجع سابق)، ص: 75.

[50]– هشام شرابي وآخرون: تأملات في الواقع العربي (حوار)، بدايات للنشر والتوزيع، دمشق، ط.1، 2010، صص: 39، 40.

[51]–نينار إسبر: أحاديث مع والدي أدونيس، تر: حسن عودة، دار الساقي، بيروت، ط.1، 2010، ص: 57.

[52]– تأملات في الواقع العربي (مرجع سابق)،ص: 20.

[53] – أدونيس،الحوارات الكاملة، (1981–1986)، أعدها للنشر أسامة اسبر، بدايات للنشر والتوزيع، بيروت، ط2، ج2، 2010، ص 83.